

دراسات الأدب المعاصر، السنة السابعة، صيف ١٣٩٤، العدد السادس والعشرون: صص ١٠٣-١١٨

فلسطين في نظرة الكاتب الشهيد غسان كنفاني (رجال في الشمس)

فاطمة على نژاد چمازكتى*

تاريخ الوصول: ٩٣/١٠/١٣

سعيده ميرحق جو لنكرودى**

تاريخ القبول: ٩٤/١/٢٠

الملخص

غسان كنفاني كاتب، وناقد، وروائي وشاعر شهيد، قد خرج برواياته العديدة عن دائرة الواقع الاجتماعي المحلي إلى القضايا الانسانية العامة التي تتعلق بالوجود وبالإنسان. يدين غسان في روايته، رجال في الشمس، كل الأطراف التي تسبب في نكبة فلسطين، القيادات العاجزة، والقيادات الخائنة والشعب المستسلم والذين تخلوا عن الأرض ليبحثوا عن خلاصهم الخاص والهرب هو الذي ينسى الانسان ذاته وآماله. فكرة الهرب من الواقع هي من الأفكار التي تخضع للرفض في هذه الرواية.

الكلمات الدليلية: غسان كنفاني، رجال في الشمس، فلسطين، الرمز.

alinezhad@isc.gov.ir

mirhaghjoo@isc.gov.ir

* عضو هيئة التدريس في المركز الإقليمي للمعلوماتي للعلوم والتكنولوجيا، شيراز، إيران.

** عضو هيئة التدريس في المركز الإقليمي للمعلوماتي للعلوم والتكنولوجيا، شيراز، إيران.

الكاتبة المسؤولة: فاطمة على نژاد چمازكتى

المقدمة

ولد *عسان كنفانى*، كاتب وناقد وروائي وشاعر وشهيد فى مدينة عكا سنة ١٩٣٦م، واستشهد سنة ١٩٧٢م؛ فهو رغم أدبه الخاص ورواياته الكثيرة، لم تعرف فى بلادنا كما يستحقه. إن ظهور *كنفانى* كأديب كان مع روايته «رجال فى الشمس» (١٩٦٣م)، فى مناخ ثقافى وفكرى عام، شكلت القضية الفلسطينية خلفية بعيدة لهموم النخب الثقافية العربية. من نتايج نكبة عام ١٩٤٨م، كان هروب الشعب الفلسطينى من وطنه؛ ليعيش لاجئاً فى أغلب اقطار الوطن العربى. نرى فى هذه الظروف عديداً من الضحايا فى الميدانين الاجتماعى والسياسى و قد انعكست هذه الظروف والحالات فى الرواية الفلسطينية بوضوح كامل فى صورة رموز بشرية وقعت ضحية ظلم الآخرين وتعسفهم.

هذه الرواية «رجال فى الشمس» تصف تأثيرات نكبة فلسطين سنة ١٩٤٨م، على الشعب الفلسطينى من خلال أربعة نماذج من أجيال مختلفة. إنهم حاولوا الهرب وعبور الحدود الكويتية من جهة البصرة فى جنوب العراق. كان سبب الهروب اولئك الفلسطينيين من الأرض المحتلة؛ لأن كل واحد منهم لا طاقة له على المقاومة. كل منهم يبحث عن فرصة للعمل لكسب لقمة العيش لنفسه ولأفراد عائلته. يقرر الرجال، الهرب فى خزان شاحنة يقودها ابوخيذران، فى نقطة الحدود ويموت الفلسطينيون الثلاثة؛ لأن السائق يتأخر، يموتون دون أن يقرعوا جدار الخزان أو يرفعوا صوتهم بالصراخ.

هى الرواية التى إعتمدت الشكل الأقرب إلى المعاصرة وقد قام بناؤها الروائى على حدث، غير أن ذلك الحدث لم يتطور تقليدياً بحيث نرى إليه وهو ينمو لحظة بعد لحظة وساعة بعد ساعة أمام أعيننا. الشخصيات تتحدث فى زمن واحد والأمكنة أو الأزمنة، تتقاطع وتتوازى وتتوافق. إن *عسان* يخلق شخصياته نتيجة ملاحظاته الدقيقة لنفسيات وأنماط سلوك الشخصيات الحية التى يراها ويتعامل معها فى حياته العادية. *عسان* يستطيع أن يخلق شخصيات ذات ملامح فنية، خاصة تجعل الشخصية خالدة فى ساحة الأدب العظيم؛ لأن شخصيات رواياته تجاوزت صفحات الكتب النقدية وصار الناس يتحدثون عنها، كأنما هى كائنات بشرية عاشت بينهم بالفعل.

غطى *عسان كنفانى* مرحلة خصبة من مراحل النضال الوطنى الفلسطينى، من اللجوء والتشرد إلى المقاومة. غير أن تميز *كنفانى* عن سابقه كان فى جعله التاريخ مجرد خلفية،

تسقط عليها ظلال روائيته تحركها ريشة فنان مبدع، فهو يعالج فترة ما بعد النكبة بجوعها وبؤسها وتشردها، من خلال أثارها في روايته رجال في الشمس؛ إذ تجبر هذه الظروف التي لا يفصل في الحديث عنها، الشخصيات الرئيسية في الرواية أن تبدأ رحيلها إلى قدرها المحتوم والإشارات التاريخية الواردة لا تقول التاريخ، ولكنها تحاول أن تصنع تاريخها الخاص من خلال مقتبسات لا تشغل مساحات واسعة على الورق. رجال في الشمس ليست مجرد ظاهرة البحث في التشرد والابتعاد عن مكان، ومحاولة البحث عن الأمان في أمكنة جديدة. إنما هي تساؤل صريح كيف يموت فلسطيني على عتبات التشرد والضياع. مكان الرواية خزان هو بكل بساطة صهريج ماء ولكنه في نص الرواية ينطوي على دلالات عدة. هو يمثل السجن الكبير الذي حوصر فيه الفلسطيني أثر التشرد واستلاب كل شيء منه. يمثل الضياع والتشرد وفي نهاية حقيقة مرة واقعة.

تنوى المقالة الإجابة على هذه الأسئلة:

- ما هو الموضوع الرئيسي في رواية «رجال في الشمس»؟
- كيف تتمثل الرموز المختلفة في الرواية؟
- كيف يعكس غسان الوضع الفلسطيني والقضية الفلسطينية في هذه الرواية؟

الدراسات السابقة

يمكننا الإشارة إلى مقالة صبيحة عودة زعرب «غسان كنفاني، جماليات السرد في الخطاب الروائي» التي تدرس فيها التحليل الهيكلي في مجموعة القصص لغسان كنفاني؛ وحمدرضا صاعدي في مقالة «تجليات انطباعية في رواية ما تبقى لكم» قامت بدراسة انطباعية من الجانب النظري الذي يقدم تأطيرا لمفهوم انطباعية وظهورها وكيفية تجلياتها والأدب القصصي والجانب التطبيقي الذي يحاول إلقاء الضوء على أهم سمات التأثيرية والانطباعية في هذه الرواية. وهكذا صاعدي في مقالة أخرى «التبئير في رواية ما تبقى لكم» يدرس التبئير في الرواية من وجهات نظر النقاد جرار جنت وتودورف. مهند عدنان صلاحات في مقالة «البعد التاريخي في رواية الشهيد غسان كنفاني رجال في الشمس» يحاول استقراء بعض الفقرات من جسد الرواية، وإسقاطها على التاريخ الذي تسبب بنكبة العام ١٩٤٨م، ومن ثم محاولة أخرى لإسقاط زوايا أحداث الرواية على الواقع

ليوضح كذلك مدى عمق رؤية الشهيد كنفانى فى استقراء المستقبل لنعطيه رؤية أكثر واقعية وأكثر تحليلية. محمد فؤاد السلطان فى مقالة «قصة رجال فى الشمس لغسان كنفانى؛ دراسة نقدية» تناول الاتجاهات الفنية فى القصة نحو الاتجاه الواقعى، والرومانتيكى، والرمزى، وكشف عن الأفكار الكلية والجزئية فى القصة، ومدى قرب الكاتب من زمان ومكان وشخصيات القصة. وهناك كتاب «جدلية المكان والحدث فى رواية رجال فى الشمس للأديب غسان كنفانى؛ دراسة أدبية أسلوبية» لطلعت عبدالعزيز أبوالعزم الذى ركز على مناقشة رواية «رجال فى الشمس» التى تصور محاولات بعض الفلسطينيين الهروب من واقعهم المرير إلى أوهام السفر والثراء فى بلاد الغربة.

غسان كنفانى حياته الشخصية والأدبية

«ولد غسان كنفانى فى مدينة عكا فى فلسطين سنة ١٩٣٦م، وتلقى دراسته فى مدارس الفرير فى مدينة يافا» (كنفانى، ١٩٨٧: الف). «حدثت مأساة فلسطين سنة ١٩٤٨م، التى أرغمته على النزوح من وطنه إلى لبنان قبل أن يتم دراسته الابتدائية ثم لحق بأفراد أسرته فى دمشق، وعاش فى شطف من العيش وقسوة من الحياة» (السوافيرى، د.ت: ٣٨٠). «فبها عمل غسان مع شقيقه غازى فى وظيفة "العرضحالى" يكتبان الشكاوى للفقراء أمام المحكمة؛ لنيل حقوقهم. راح غسان وشقيقه يتابعان الدراسة فى مدرسة ليلية فى الوقت الذى سافرت فيه فايزه (أخته) للكويت للعمل معلمة هناك ضمن قافلة تضم أول دفعة للمعلمات الفلسطينيات» (العباسى، ٢٠١٥).

وهذه الشدة لم تضعف عزيمته ولم تصرفه عن مواصلة دراسته. ذكر والد غسان رحمه الله فى مذكراته: «بتاريخ ١٩٥٣/٩/٢٩ باشر غسان بعد حصوله على الشهادة الإعدادية العمل فى مدارس الوكالة كمعلم لمادة الرسم فى معهد فلسطين. عمل أحيانا كمعلم أيضا فى مدرسة دوحه الوطن الخاصة، وعمل لفترة قصيرة كرسام فى مكتب مجلة الإنشاء لصاحبها نجيب الحفار» (كنفانى، ٢٠٠١: ١١٠).

«فى عام ١٩٥٦م سافر غسان كنفانى إلى الكويت ليلحق بأخته وشقيقه بها حيث عمل معلماً للتربية الفنية والرياضية وتحسنت الأحوال المعيشية للأسرة فى هذه الفترة، وحصل على موافقة السلطات للممارسة مهنة المحاماة وكان معظم زبائنه من

الفلسطينيين» (حسن، ٢٠١٥). في هذه الفترة المبكرة من حياته بدأ كتابة القصة القصيرة. ويعلمنا كنفاني أن ميوله الاولية وإهتمامه المبكر كانت ذات طابع أدبي يقول: «إن حياتي السياسية نتجت عن كونى روائياً وليس العكس، لقد حاولت كتابة قصة شعبي الفلسطيني قبل أن تتبلور أمامى الروية السياسية، ولقد رأيت أن هنالك شيئاً ينقضى إذا لم إنخرط في الحياة السياسية وإننى أتضائل كثيراً لو لم أكن روائياً في نفس الوقت» (ضمرة، ٢٠١٥). «في بداية سنة ١٩٦٠م، طلب منه الطبيب الفلسطيني جورج حبش الحضور إلى بيروت للمساهمة في تحرير مجلة الحرية، وقد نصحه أصدقاؤه اللاي فعل كونه بحاجة إلى المردود المادى الذى تؤمنه له الوظيفة، فهو مريض بداء السكر ومرضه يتطلب نفقات علاج باهضة ومع ذلك لبي نداء الواجب وودع مهنة التعليم والتحق بأخته لعمل التعليم في الكويت للمساهمة في اعالة الاسرة وبدأ يعمل فى الصحافة» (غسان كنفاني، ١٣٧٠: ٨-٩).

«على صفحات مجلة «الحرية» وقف مدافعاً عن القصة القصيرة والرواية والمسرحية من جهة وعن معتقداته من جهة ثانية. «وسافر مرة أخرى إلى بيروت فى ٢٨/١٠/١٩٦٠ بهوية عمانية باسم هشام فايز يرتدى الكوفية والعقال ليستقر فيها نهائياً» (كنفاني، ٢٠٠١: ١١٢). كانت بيروت المجال الأرحب لعمل غسان وفرصته للقاء بالتيارات الأدبية والفكرية والسياسية. «بدأ عمله فى مجلة الحرية ثم أخذ بالإضافة إلى ذلك، يكتب مقالاً اسبوعياً لجريدة المحرر البيروتية والتي كانت ما تزال تصدر أسبوعية صباح كل إثنين» (البيك، ٢٠١٥). عام ١٩٦١م، كان يعقد فى يوغوسلافيا مؤتمر طلابى. إشتربت فيه وفد فلسطينى وكذلك كان هناك وفد دانمركى، كان بين أعضاء الوفد الدانمركى فتاة كانت متخصصة فى تدريس الاطفال، هى كانت آنى». كان غسان يطلب يدها للزواج وقام بتعريفها على عائلته كما قامت هى بالكتابة إلى أهلها» (مجموعة التقدم الالكترونية، ٢٠١٥).

حياته الأدبية

أدب غسان وإنتاجه الأدبى كانا متفاعلين دائماً مع حياته وحياة الناس، وفى كل ما كتب كان يصور واقعاً عاشه أو تأثر به. عائد إلى حيفا عمل وصف فيه رحلة مواطنى حيفا

فى انتقالهم إلى عكا وقد وعى ذلك. و هو ما يزال طفلاً يجلس ويراقب ويستمع، ثم تركزت هذه الأحداث فى مخيلته فيما بعد من تواتر الرواية. أرض البرتقال الحزين قصة تحكى رحلة عائلته من عكا وسكناهم فى العيشة الصعبة. موت سرير رقم ١٢، استوحاها من مكوثه بالمستشفى بسبب المرض.

رجال فى الشمس من حياته و حياة الفلسطينيين بالكويت وأثر عودته إلى دمشق فى سيارة قديمة عبر الصحراء. كانت المعاناة ووصفها هى تلك الصورة الظاهرية للأحداث؛ أما فى هدفها فقد كانت ترمز وتصور ضياع الفلسطينيين فى تلك الحقبة وتحول قضيتهم إلى قضية لقمة العيش مؤكداً على أنهم قد ضلوا الطريق. فى روايته ما تبقى لكم التى تعتبر مكملة لرجال فى الشمس يكتشف البطل طريق القضية فى أرض فلسطين وكان ذلك تبشيراً بالعمل الفدائى.

روايته «أمسعد» كانت كلها مستوحاة من ناس حقيقين فى فترة من الفترات كانت الرواية عن ثورة ١٩٦٧م فى فلسطين، فأخذ يجتمع إلى ناس المخيمات ويستمع إلى ذكرياتهم عن تلك الحقبة. «كانت لعسان عين الفنان النفاذة وحسه الشفاف المرهف، فقد كانت فى ذهنه فى الفترة الأخيرة من حياته فكرة مكتملة لقصة رائعة إستوحاها من مشاهدته لأحد العمال، وهو يكسر الصخر فى كاراج البناية التى يسكنها وكان ينوى تسميتها الرجل والصخر» (العباسى، ٢٠١٥). عالج عسان البحث والقصة والرواية ولكنه أصدر طائفة من قصصه ورواياته التى عالج فيها مأساة قومه وكارثة بلاده. يقول الدكتور احسان عباس: «من يقرأ قصص عسان كنفانى يدرك دون عناء، أن اشخاصه من أبناء الشعب البسطاء وكثير منهم أطفال أو شبان يعملون بدافع من صدق الفطرة دون أن يبلغوا سن الحكمة، وليس فيهم من يحاول أن يفلسف الدور الذى يؤديه أو الغاية التى يسعى إليها، فمنهم من يضحي بحياته دون أن تمر بخاطره لم ! ومنهم من يتحمل عبء العائلة الكبيرة التى خلفها لها أبوه والتشرد معاً دون أن يتذمر، ومع ذلك فإنهم فى مثل هذه المواقف ليسوا سلبيين كما أنهم ليسوا أطهاراً كالملائكة» (السوافيرى، د.ت: ٣٨١). «نال عام ١٩٦٦ جائزة أصدقاء الكتاب فى لبنان عن روايته «ما تبقى لكم». نال اسمه جائزة منظمة الصحفيين العالمية سنة ١٩٧٤ وجائزة اللوتس ١٩٧٥. منح اسمه وسام القدس للثقافة والفنون فى عام ١٩٩٠» (شاهين، ٢٠٠٠: ٥٤٣/٢).

موجز رواية رجال في الشمس

رجال في الشمس، هي الرواية الأولى للكاتب الفلسطيني الراحل غسان كنفاني والرواية تصف تأثيرات نكبة فلسطين سنة ١٩٤٨م، على الشعب الفلسطيني من خلال أربعة نماذج من أجيال مختلفة.

أبو القيس: هو أول الشخصيات التي تعرضها الرواية، رجل فقد بيته وشجرات الزيتون التي يملكها وأصبح يعيش مع زوجته الحامل وإبنة الصغير في المخيمات. يستجيب للضغط الذي يمارسه عليه أحد العائدين الأغنياء وحالة الفقر المدقع التي يعانيها هو وأسرته، فيودع زوجته وابنه ويسافر إلى العراق محاولاً أن يجد فرصة ليهرب عبر الحدود العراقية الكويتية من البصرة إلى الكويت؛ ليحصل على النقود التي يبني بها بيتاً ويشترى شجرات زيتون جديدة.

أسعد: أما الشخصية الثانية في الرواية فهي أسعد، وهو شاب مناضل تطارده السلطات بسبب نشاطه السياسي، لكنه يحاول الهرب إلى العراق مصمماً على عبور الحدود إلى الكويت؛ ليستطيع أن يكون ثروة يرد بها الخمسين ديناراً، التي أقرضها له عمه؛ ليبدأ بها حياته ويتزوج ابنة عمه التي لا يحبها لكنها خطبت له يوم مولدهما.

مروان: أما مروان، فهو فتى في المرحلة الثانوية، يضطر لترك المدرسه والذهاب إلى البصرة، ليدخل منها إلى الكويت بمساعدة المهريين حتى يعمل وينفق على أمه وأخوته الصغار.

أبو الخيزران: هو سائق ماهر، مهرب يعمل مع تاجر كويتي كبير إسمه الحاج رضا. يقبل أبو الخيزران أن يهربهم مقابل عشرة دنانير من كل منهم بعد الوصول إلى الكويت. أبو الخيزران عمل في الجيش البريطاني وعمل مع الفدائيين فأصيب بقنبلة أفقدته رجولته وأعطته كل مرارة العالم.

ثلاثه من الرجال الفلسطينيين حاولوا الهرب وتخطى الحدود بين الدول العربية للحصول على لقمة العيش. أمام أبواب المهريين في البصرة كان الثمن غالباً خمسة عشر ديناراً لكن أبو الخيزران يعرض على مروان تهريبهم إلى الكويت بخمسة دنانير. أما الطريقة فهي بواسطة ناقلة ماء، يبقون في الخزان ست دقائق عند عبور الحدود العراقية الكويتية؛ لأن موظف عابث يعطل أبو الخيزران ويصر أن يحكى له السائق حكايته مع الراقصة

العراقية كوكب التي تحبه لدرجة العبادة بسبب فحولته. بعد خلاص ابوالخيزران من يد الموظفين تنقضى نصف ساعة ثم في عرض الصحراء يفتح ابوالخيزران باب الخزان ليجد الثلاثة جثثاً في داخله، دون أن يقرعوا جدار الخزان أو يرفعوا صوتهم بالصراخ. وإنتهت الرواية بكلام أبوالخيزران حينما صرخ: «لماذا لم تدقوا جدران الخزان...!!؟!!» (كنفاني، ١٥: ٢٠٨).

دراسة فنية لرواية رجال في الشمس

في السنوات التي أعقبت نكبة ١٩٤٨م، كانت الظروف الحياتية والنفسية التي مرت بالشعب الفلسطيني قاسية إلى حد جعله يعيش سنوات طويلة، لا يفكر إلا في كيفية الخروج من هذه الظروف المعيشية القاسية. أما العودة إلى الوطن فكانت الحلم الكامن في النفس وربما لهذا السبب مرت ستة عشر عاماً، دون أن تشهد الساحة الفلسطينية أية حركة ملموسة الأثر للخروج من هذا الخزان - الموت. من وسط هذا الجو القاتل خرجت رواية *عسان كنفاني* «رجال في الشمس» في سنة ١٩٦٣م؛ لتكون محاكمة نقدية لمجمل هذه الظروف الخاصة، الرموز البشريه العاملة من خلالها.

من حيث أسلوب السرد: فقد استخدمت رواية «رجال في الشمس» أساليب السرد المختلفة؛ لتقدم لنا أحداثاً وأفكاراً، مركزه زمانياً ومكانياً وخاصة عن طريق تيار الوعي، لعل المؤلف بعمله هذا كان يقلد وعى الانسان نفسه.

الزمان والمكان: إننا نحس زمناً مكثفاً في مكان محدود، «يضاعف من درامية الحدث وتوتره من خلال أساليب السرد المختلفه: التعاكس والتقاطع، التداعى والسرد المباشر و...» (السعافين، ١٩٨٧: ٣٣٤).

الاسلوب: وقد إستفاد بعض الروائيين الفلسطينيين وخاصة *عسان كنفاني* من اللوازم الدلالية التي يقيد نفسه بها من خلال إعادة بعض التراكيب ذات الدلالة بطرق مختلفة. ويمكن أن يشار إلى روايته «رجال في الشمس» التي تكرر عدة تراكيب تعطى للقارى مفاتيح قراءة الرواية.

فمنذ بداية الرواية يقدم لنا *كنفاني* التركيب اللغوى التالي: «وكان ثمة طائر أسود يحلق عالياً وحيداً على غير هدى» (كنفاني، ١٥: ٢٠٨). وبهذا التركيب إستطاع *كنفاني* أن

يضيف شيئاً آخر إلى شخصية أبي قيس الذي يسير على غير هدى في بلاد النفي الواسعة، وليؤكد سواد مستقبل أبي قيس وسواد هذا الطائر يكرر في تركيب آخر بعد خمسة أسطر فقط: «مازال الطائر يحوم وحيداً مثل نقطه سوداء في ذلك الوهج المترامى فوقه» (المصدر نفسه، ١٥: ٢٠: ٨). ثم يعود الروائي إلى هذا التركيب مرة ثالثة؛ ليؤكد ما بات مؤكداً وهو حتمية إنهزام أبوقيس ومن معه مادام خطواته غير المهتدية مجللة بالسواد: «صوت الشط يهدد والبحارة يتصايحون والسماء تتوهج والطائر الأسود مازال يحوم على غير هدى» (المصدر نفسه، ١٥: ٢٠: ١٥). وهكذا فإن رواية «رجال في الشمس» تبدأ بنذير موت. لقد هيأ غسان كنفاني المنصة بتقديم نذير الموت، وركز على إيقاع الموت من خلال تطور الرواية وتطور لغتها.

الشخصيات: الشخصيات التي خطت بها هذا الرواية، واقعية نراها في الحياة ونعرفها فيمن نعرف من الناس. فإنها ينبغي أن تكون إنسانية بمعنى أنها تتصف بما يتصف به الإنسان من نزوع إلى الخير وإلى الشر معاً؛ وبمعنى أن الشخصية تقع على نقطة معينة من اللون الرمادي فليست الشخصية، كما لاحظنا في الروايات، المتأثرة بالذوق الشعبي أو بالرواية الخيالية الغربية، ملائكية أو شيطانية، بل هي كما ذكرنا منذ قليل، واقعية إنسانية. وعلى هذا النحو فإن المؤلف لا يستطيع أن يقدم لنا شخصياته دفعة واحدة وإن قدم لنا ما يريد من ملامحها الخارجية بهذا الأسلوب؛ بل إنه يكشف عن طبيعتها شيئاً فشيئاً بحيث يتناسب هذا الكشف مع تطور الأحداث فليس بوسعنا أن نتعرف على ما سيحدث لحظة بلحظة؛ بل إن التلاحم بين الأحداث والشخصيات يفاجئنا بالجديد والمدهش والمثير.

«إن هذه الشخصيات التي تتحرك أمامنا في هذه الرواية شخصيات إنسانية تتصارع في أعماقها قيم مختلفة، ويحدد اتجاهاتها وسلوكها مؤثرات مختلفة نفسية واجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية وقومية ودينية. فهي على هذا النحو ليست جامدة ساكنة، نجدها كما عرفناها، هي دائمة التغيير تؤثر وتتأثر تصنع الأحداث وتنفعل بها» (السعافين، ١٩٨٧: ٣٥٩).

السرد: الكاتب كما إنه يعتمد بشكل كبير على المونولوج الداخلي في سرد الأحداث وواضح أيضاً أن الكاتب إستفاد من تقنية السيناريو السينمائي؛ فحكى روايته بصورة قبل كل شيء آخر. «ولعل هذا من الأسباب المهمة التي جعلت المخرج المصري توفيق صالح

يتحمس للرواية و يقرر أن يضع منها فيلماً سنة ١٩٦٥م، لكنه لا ينجح في ذلك إلا سنة ١٩٧٢م. فقد إلتزم المخرج بالعمل الروائي تماماً وبكل تفاصيله وبرسمه للشخصيات وتسلسل الأحداث فيه ومع ذلك إستطاع توفيق صالح صنع فيلم ممتاز حصل على العديد من الجوايز«الزبيدي، ٢٠١٥). يمكن قراءة الرواية والفيلم قراءات متعددة لثرائهما الفني والفكري، لكن تظل إحدى الميزات الكبرى التي امتلكها الكاتب والمخرج، الرواية الثاقبة التي تنبأت بالمستقبل أو بشرت به أودعت إليه فحدثت الإنتفاضة وأصبح للفلسطيني صوت يسمعه العالم راضياً أو مضطراً!..

نهاية الرواية من الناحية الفنية: يمكن أن نقول، روايات كثيرة تقدم نهايتين للرواية كهذه الرواية: الأولى تنهى الأحداث، والثانية تنهى السياق الخطابي. ولا يمكن القفز هنا عن رواية «رجال في الشمس» بوصفها واحدة من أهم الروايات الفلسطينية التي لجأت إلى هذه التقنية، ونجحت في استخدامها. فالنهاية الحديثة للرواية تقدم من خلال الخطاب التالي: «وعاد أبو الخيزران يسير إلى حيث ترك الجثث فأخرج النقود من جيوبها، وانتزع ساعة مروان وعاد أدراجه إلى السيارة ماشياً على حافتي حذائه» (كنفاني، ٢٠١٥: ٥١). ولكن النهاية اللغوية للرواية تأتي عبر تساؤل يطرحه أبو الخيزران نفسه حين يسأل ذاته وتردد الصحراء سؤاله: «لماذا لا تدقوا الجدران؟» (المصدر نفسه، ٢٠١٥: ٥٢). إن هذا التساؤل في حقيقته صرخة يطلقها أبو الخيزران، الصحراء و«عسان كنفاني» وهو أيضاً عنوان مرحلة من النضال الفلسطيني ضد لقمة العيش وضد القيادة الفلسطينية غير الفعالة في إدارة الصراع بين الفلسطينيين وأعدائهم آنذاك.

الرمز في الرواية

«يعد الرمز شكلاً من أشكال التعبير المجازي فالبنية اللغوية الفوقية مجرد غطاء فني للبنية التحتية التي تحتاج إلى قراءة وفهم عميقين (حطيني، ١٩٩٩: ٢٠٨). وقد حملت الرواية الفلسطينية بكثير من الرموز ولكن معظم هذا الكثير كان يأتي مألوفاً، ونسطيع أن نجد ارتباطاً رمزياً بين الأم والأرض والبحر والغربة و...؛ غير أن رموزاً أخرى إستطاعت أن تتجاوز المألوف وأن تشكل نصاً موازياً للرواية ذاتها. ويمكن في هذا الإطار أن نشير إلى كثرة الرموز والإسقاطات في رواية «رجال في الشمس» حيث ثمة رموز مكشوفة.

كان أبو الخيزران رمزاً للقيادة الفلسطينية أو رمزاً حتى للشيطان نفسه. إن شخصية أبو الخيزران ترمز إلى كل من يتحمل مسؤولية الضياع الذي عاشه، ويعيشه الفلسطيني وقبله ضياع الوطن وقد كان موحياً أن جعله غسان كنفاني رجلاً فقد رجولته ومع ذلك ما يزال ينتطح لقيادة الشعب الفلسطيني رغم أنه يعرف عدم قدرته (رجولته). «على ذلك إن الدراسة التاريخية للقيادة الفلسطينية في تلك المرحلة أثبتت أن من أسباب عجزها تفكيرها الدائم في مصالحها الخاصة المرتبطة بالانتداب البريطاني» (أبومطر، ١٩٨٠: ٢٤٢). تكون الشخصيات الأربعة في «رجال في الشمس»، هي الشعب الفلسطيني المنكوب المنفى وقد سحقته الحياة بقساوتها وبيأس طاغ فأخذ يبحث عن أبواب الخلاص؛ ليشتري أبوقيس عرقى زيتون وغرفة ويعلم أولاده وليقهر أسعد عذابات الطرق، ويبدأ الحياة كأى شاب في عمره وليجعل مروان كوخ الطين جنة لتهنأ أمه وصغارها.

كان موظفو الحدود رمزاً للبيروقراطية العربية أو رمزاً لقصر النظر. وتعد الصحراء رمزاً مهماً من رموز الرواية الكنفانية، وقد بدأ ذلك واضحاً في روايته «رجال في الشمس» وما تبقى لكم. ومن الجدير بالذكر إن الصحراء في «رجال في الشمس» لم تمثل فقط حاجزاً لا بد من اجتيازه؛ بل أيضاً مكاناً يتسم بالحر اللافح أدى إلى الموت الفلسطينيين الثلاثة داخل صهريج الماء. كانت الصحراء رمزاً للعجز في «رجال في الشمس».

«الصحراء اللاهية، التي ترسل بسياط نارها فتكوى جلود الرجال، الممتدة بلا نهاية، بلا ظل ولا رحمة، هي عالم الفلسطيني بعد النكبة، هي غربته ومنفاه يضرب فيها باحثاً عن الأمن والسلام عن الرزق والإستقرار ولا يلقى إلا الظلم والإضطهاد في هذا المحيط الصعب، ومع الإنهيار الكامل لكل المقومات الانسان الحياتية» (خليل، ١٩٨٩: ٩٥). التساؤل الأخير رغم إنعدام منطق ورده على لسان أبو الخيزران: «لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟» (كنفاني، ١٩٨٥: ٥٢). فالرمز النقدي في هذا التساؤل واضح.

فمادام الموت محققاً بالمرء، يبقى من العبت إستقباله دون حركة أو صرخة أو احتجاج. وهو تساؤل موجه للشعب الفلسطيني الذى كان يستقبل الموت فى كل الساحات. التساؤل يعنى إن الموت المحقق لا بد من مواجهته فأما النجاح فى ذلك أو الموت عندئذ بشرف وكرامه. إنه تساؤل نقدي يعرى مرحلة السكوت التى مارسها الفلسطينى آنذاك وهو يستقبل الموت قانعاً.

فلسطين في رواية رجال في الشمس

«رجال في الشمس» الرواية الأولى للكاتب، هي أول عمل فلسطيني يثير ضجة كبيرة على صعيد النقد والأدب والجمهور وتنال استحساناً لم يسبقها إليه عمل روائي فلسطيني. فضل النقيب يصف ظهورها قائلاً: «فجأه تظهر رجال في الشمس، بشكل غير عادى يكتب عنها النقاد ويتحدث عنها القراء باعجاب متزايد. الكل يؤكد أنها عمل أدبي ممتاز، ما إن تبدأ بقراءة كلماتها الأولى حتى تملك عليك نفسك وأحاسيسك، ولا تتركك إلا مع كلماتها الأخيرة» (عباس وآخرون، ١٩٧٤: ٦٢).

ويقول فاروق وادى: «تملك الواقع وتملك الأداة الفنية المتميزة وتضافرهما الجدلي لصياغه عمل فني متقدم، تحققت للمرة الأولى على صعيد الرواية الفلسطينية. في العمل الروائي الأول لعسان كنفانى «رجال في الشمس» الذى قدم رؤية فنية وايدولوجية وسياسية، تتجاوز الرؤى السياسية والايديولوجية المعلنة -خارج النص- للكاتب نفسه. فهذه الرواية استطاعت أن تستوعب شروط تاريخها، محاولة رصد حركة جوهره والإجابة عن أسئلته الجوهرية ومن ثم طرح السؤال الحاضر تاريخياً حول الفعل الغائب فى ذلك التاريخ: لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟» (خليل، ١٩٨٩: ٧٥).

إن إكتفاء عسان فى هذه الرواية- يطرح التساؤل، كان منطقياً للغاية مع واقع حركة الشعب الفلسطينى؛ إلا إنه تساؤل يحمل إجابته فهو إهابة بالشعب أن يكف عن إستقبال الموت قانعاً ساكتاً. يكون مصيره جثة ملقاة بجوار أكوام القمامة. إن هذا التساؤل يحمل فى طياته نبوءة كانت تولد داخل الكيان النفسى للفلسطينى. وستجد هذه النبوءة فى أعمال عسان الأخرى تجسيدياتها المتنوعة، كما عاشها الواقع الحى بواقعية فنية جعلت الواقع والفن شيئاً واحداً. رغم تركيزها على الموقف النقدى فى هذه الرواية، تبقى فى إجمالها صورة صادقة لمسيرة العذاب الفلسطينى، خاصة فى لحظاته المأساوية. «وقد استطاع عسان كنفانى أن يضى على هذا الواقع إحياءات عدة عن طريق الرموز التى ضمنها لشخصياته، كى تعطى المدلول الأشمل لتلك المسيرة بكل ما فيها من ألم وعذاب» (أبومطر، ١٩٨٠: ٢٦٥).

عسان فى هذه الرواية يعطينا الواقع الفلسطينى، كما هو دون أن يعمد إلى إعادة ترتيبه. إلا أن تساؤله الأخير يعنى ضرورة البدء بإعادة ترتيب هذا الواقع عن طريق الثورة

عليه. وفي أعماله القادمة سنجد تجسيد هذا الواقع بعد أن توفرت الإمكانيات الذاتية لرموزه حيث أصبحت لا تفر بعيداً عن الأرض بل نحوها، لا تستقبل الموت الذي يفرضه عليها الآخرون قانعة ساكته؛ بل تتقدم نحو الموت بجسارة وقد ملكت إرادتها وأيقنت أن تسوية الامر تحتاج إلى المواجهة.

نكتفى بنموذج من النص: أبو القيس يحدث نفسه: «في السنوات العشر الماضية لم تفعل شيئاً سوى أن تنتظر... لقد إحتجبت إلى عشر سنوات كبيرة جائعة كي تصدق، أنك فقدت شجراتك وبيتك وشبابك وقريتك كلها» (كنفاني، ٢٠١٥: ٤٦). وفي مقتبس آخر تقول زوجة أبوقيس تخاطبه «أتعجبك هذه الحياة هنا؟ لقد مرت عشر سنوات وأنت تعيش كالشحاذ» (المصدر نفسه، ٢٠١٥: ٤٧).

غسان يوافق تطور أحوال الفلسطينيين المشردين المنكوبين، الذين مزقوا خيام التشرد وسكنوا خيام التدريب بعد إنطلاقة الثورة الفلسطينية عام ١٩٦٥م. توضح الرواية لنا أن شخصية أبوقيس تجسد نموذجي لحالة فلسطينية، عمت المجتمع الذي فرض عليه النزوح. شخصية تحمل داخلاً غنياً بذكريات الماضي الطيب الكريم، مذهولة أمام حاضر شرس إفتقدت فيه القيمة الاصيلة للانتماء بفقدان الوطن ومع فقدته إنسحبت من كيانها كل مقومات المدافعة والمواصلة والكفاح. شخصية بائسة تريد الفعل ولكن القوى الخارجية أقوى من إرادتها. تحاول معالجة الحاضر وقد تهيأ لها أن الفقر والبؤس هما عدواً هافية ولا تعي أن المعالجة الحقيقية لن تكون إلا بالقضاء على مسببات؛ وعلّة هذا الحاضر التبعيس وفقدان الوعي بجذور ومكونات حالتها هو من مخلفات المرحلة التاريخية التي عاشتها. والتي ترزح تحت جهل مطبق بأهم ما يجري حولها من أمور، مما سينتهي بها حتماً إلى هذا المصير وتغيير هذا التراكم من الجهل ويحتاج إلى جهود أفكار مستنيرة قادرة على كشف الحقائق وإزاحة الظلمات. والرواية إجمالاً مجهود من الكاتب يحب في هذا الإتجاه.

من خلال حياة شخصيات الرواية، تظهر المميزات البارزة في الحالة الفلسطينية لتلك المرحلة فكلها تعاني من البؤس، الضياع، الغربة، الحاجة حتى للضروريات (اللقمة والسكن)، الإحساس بالذل والبحث اليأس عن الخلاص. وهذه الصفات المتآزرة سننتهي بها إلى الإنهيار السلوكي وبالتالي الإنهيار الوطني؛ لأن الطرق التي ستسلكها الشخصيات تمثل

واقعاً حياً تمثيلاً نموذجياً يبلغ حد التاريخ لفترة زمنية معينة عاشها الشعب الفلسطيني بعد النكبة، وإستغراقها التام في نموذجيتها ينأى بها عن أى تأويل رمزى. ومن ذلك نلخص إلى أن الواقع المفعم بأوضاعه المتردية بؤساً وألماً وحاجة قد طغى بحضوره المؤثر وأكد بعمق واقعية الشخصيات الخالصة.

«كان البطل الضحية من أول الشخصيات التي لاقى اهتماماً فى الرواية الفلسطينية؛ لأن الأوضاع التى أعقبت النكبة أدت بالعديد من الأشخاص إلى أن يعانون العذاب والظلم» (أبومطر، ١٩٨٠: ٤١٩). فى الميدان الاجتماعى يكثر هولاء الأبطال ضحايا ظروف النكبة والتشرد. قدم الكاتب الفلسطينى صوراً لضحايا الوضع الاجتماعى؛ عندما يتحالف معه الوضع السياسى ممثلاً فى رموز الأنظمة الحاكمة منزلة الموت بالانسان الباحث عن إستقراره وحرية. أقسى هذه الصور تطالعتنا فى الموت المجانى الذى لحق بالفلسطينيين الثلاثة فى رواية *عسان كنفانى* «رجال فى الشمس»، أبوقيس ومروان وأسعد.

يهرب كل منهم من ظرف خاص له قسوته وضغوطه، ظنوا أن الحياة المستقرة الأمنة سيجدونها فى الكويت. يكون مصيرهم موتاً مجانياً فى صحراء خالية من الظل والحياة بدون قبر يستر أجسادهم. هولاء الثلاثة ضحية من؟ إنهم ضحية الوضع الاجتماعى الذى أسلمهم لوضع سياسى قادهم إلى موت لا طائل من ورائه لولا صرخة أبوالخيران الأخيرة، لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟ إن هذه الصرخة وحدها تعطى لموتهم بعض المعنى، فللكاتب يمارس من خلالها وظيفة اجتماعية لها وقعها وصداهها، فهو يصرخ فيمن لم يمت بعد كى يكفوا عن استقبال الموت بصمت وخنوع.

نتيجة البحث

إستوتحت آثار *عسان* من تاريخ فلسطين وبعد ذلك إتجه الكاتب إلى كتابة الرواية الفنية والمضمونية التى تعالج الواقع وقضايا المجتمع، ولكن لم يقف *عسان* عند هذا الحد بل قطع شوطاً أوسع فى كتاباته حتى وصل إلى المرحلة الرمزية. لغة *عسان* سهلة واضحة قريبة من فهم القراء ولذلك جاء أسلوب رواياته واضحاً قريب المأخذ حتى أنك تشعر إنه يتحدث باللغة التى يتخاطب بها الناس فيما بينهم؛ ولذلك تظنها من آثار التكلف والتصنع. من حيث الشكل العام تقوم الرواية جزئياً على تقنية جديدة، أبرز ما فيها إعتما

اللوحات المنفصلة في تقديم الشخصيات الثلاثة الأولى، كل شخصية تقدم على حده في فصل قائم بذاته، ولكن هذا العرض المنفصل للشخصيات يتوقف عند التقائها مع الشخصية الرئيسية أبو الخيزران. وإنطلاقاً من هذا اللقاء، يبدأ الحدث المحوري للرواية ويأخذ مجراه الطبيعي في التطور والتأزم حتى النهاية الفاجعة.

في روايته الأولى «رجال في الشمس» يحس غسان جانب العذاب في الرحلة الفلسطينية المؤلمة، هذا العذاب الذي يقع بشكلية المعنوي والمادي على طبقة معينة هي طبقة الكادحين الفلسطينيين عمالاً وفلاحين؛ لذلك اختار لهذا الجانب أبطالاً ثلاثة هم أبو القيس، أسعد، مروان، يوكلون زمام قيادتهم إلى أبو الخيزران الذي يمثل في الرواية القيادة التقليدية للحركة الوطنية الفلسطينية؛ والتي بحكم تذبذب مواقفها وعدم جذرية تفكيرها أدت إلى انتكاس أغلب الإنتفاضات الفلسطينية.

أراد الكاتب التنبيه إلى كل الفلسطيني وبصيغة أبو الخيزران «لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟» تنتهي الرواية وفي هذا السؤال ينضو الرمز معناه التنبيه والتحريض. ولكن غسان كان نموذجاً من الإنسان الفلسطيني، لا ينسى رسالته كانت إنجازات هذه الرسالة رواياته. تمثل روايته «رجال في الشمس» تعاطفاً مع ضحايا الأنظمة العربية. فإنها تعد إدانة لهذه الأنظمة وتنويراً لمن تبقى كيلا يسقط منهم مزيد من الضحايا.

المصادر والمراجع

- أبوالعزم، طلعت عبدالعزيز. ٢٠١٥م، **جدلية المكان والحدث في رواية رجال في الشمس للأديب غسان كنفاني؛ دراسة أدبية أسلوبية**، مصر: دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية.
- ابومطر، احمد عطيه. ١٩٨٠م، **الرواية في الأدب الفلسطيني ١٩٧٥-١٩٥٠**، العراق: منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر.
- حطيني، يوسف. ١٩٩٩م، **مكونات السرد في الرواية الفلسطينية**، دمشق: اتحاد الكتاب العرب.
- خليل، خالد شيخ. ١٩٨٩م، **الرمز في أدب غسان كنفاني القصصي**، الطبعة الأولى، قبرص: د.ط.
- زعر، صبيحة عودة. ٢٠٠٦م، **غسان كنفاني، جماليات السرد في الخطاب الروائي**، عمان: دار مجدلاوي.
- السعافين، ابراهيم. ١٩٨٧م، **تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام ١٨٧٠-١٩٩٧م**، بيروت: دار المناهل.
- السوافيري، كامل. د.ت، **الأدب العربي في فلسطين من سنة ١٨٦٠-١٩٦٠م**، القاهرة: مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف.
- شاهين، احمد عمر. ٢٠٠٠م، **موسوعة كتاب فلسطين في القرن العشرين**، الجزء الثاني، غزة: منشورات المركز القومي للدراسات والتوثيق.
- عباس، احسان وآخرون. ١٩٧٤م، **غسان كنفاني، انساناً واديباً ومناضلاً**، بيروت: منشورات الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين.
- كنفاني، عدنان. ٢٠٠١م، **غسان كنفاني صفحات كانت مطوية**، بيروت: مؤسسة غسان كنفاني الثقافية.
- كنفاني، غسان. ١٩٨٧م، **العاشق**، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.
- مندور، محمد. ١٩٧٢م، **دفاع عن الأدب**، القاهرة: دار نهضة مصر.

المقالات

- السلطان، محمد فؤاد. ٢٠٠٧م، «**قصة رجال في الشمس لغسان كنفاني؛ دراسة نقدية**»، مجلة جامعة الأقصى؛ سلسلة العلوم الانسانية، العدد الثاني، صص ١-٢٣.
- صاعدي، احمد رضا. ١٣٩٢ش، «**كاربست امپرسیونيم در رمان ما تبقي لكم اثر غسان كنفاني**»، نقد ادب معاصر عربي، شماره ٣-٤، صص ١٤٧-١٧٠.
- صاعدي، احمد رضا، ١٣٩٣ش، «**راوی و كانونی شدن در رمان «ماتبقى لكم» اثر غسان كنفاني**»، ادب عربي، شماره ٢، صص ١٧٧-١٧٩.